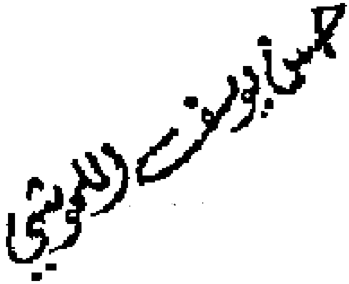
مرايا السراب

قصص قصيرة



فتحي نصيب

مجلس الثقافة العام



مـرايـا الســراب

مرايـــا الســـراب

فتحي نصيب

الناشـر

مجلـس الثـقافـة العـام

اسم الكتاب	مرايا السراب
اسم المؤلف	فتحي نصيب
سنة النشر	2006 م
رقم الإيداع	6956 / 2006 م
الترقيم الدولي	5 - 081 - 38 - 9959

تصميم الغلاف	علي العباني
لوحة الغلاف	علي العباني
التنفيذ الفني	عاطف الأطرش - نجلاء المنقوش

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات سرت

هاتف 002185468622 بريد مصور 002185473161

فرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فرع بنغازي - الفويهات الغربية الطريق الدائري الثاني

هاتف 0021861224157 0021861224157

بريد مصور 0021861224157 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني LCC2_2005@yahoo.ca

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

تنفيذ الطباعة

القاهرة ت 0020123140315

إهــداء

إلى زهـرتـي العمـر

رشــا وفــارس

".. إن القصة القصيرة
ليست قرنفلة جميلة بل نبتة
سامّة ، تتطلب حذرًا كبيرًا
عند قراءتها .."

الكاتب الغواتيمالي : أوغستو مونتيروسو

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
1- لوحة	9
2- الحديقة	13
3- البيت	17
4- الصقيع	23
5- اللعبة	31
6- المقهى	37
7- القطار	43
8- المدينة	47

الموضوع	رقم الصفحة
9- العفريتة	53
10- الشيء الذي حدث	59
11- الكابوس	65
12- الوجبة	73

لـوحَــة

هذا باب .

تلك آنية طعام .

هذه كوة خلفها ليل .

هذا فراش ووسادة ووقت رتيب .

ذاك مرحاض وأدوات حلاقة .

هذه جدران .

تلك أبيات شعر.

هذا قميص به رتق .

هذا كوب شاي بارد .

هذه ملعقة وعلبة حليب فارغة وزيت .

هناك ضجر.

هذه صورة امرأة ذات جدائل .

تلك سجائر وعلبة ثقاب وسهاد .

ذاك مصباح نوره ساطع .

هذه كومة ملابس داخلية .

هذه علبة دون هويِّة

هذه صورة أمي ودفء وحنين .

هذا مصحف ورواية لـ " ماركيز " .

هنا هواء عطن وحواس معطّلة ووحدة .

هذه صحيفة وتلك منفضة سجائر ورماد .

هذا حذاء أسود دون خيوط .

تلك بضعة نمال سارحة وباقة أحلام مؤجلة .

هنالك قنينة ماء واشتهاء .

وهنا غطاء صوفي .

هذه ذاكرة ساكنة ومشجب ومسمار معقوف .

هذه سترة حال لونها وبضعة صور لأحباب قضوا .

هذه أرضية أسمنتية وتلك مرآة مشروخة .

هنا وهم كثيف وخبز وبرد .

هذه حكايات صبايا وهذا سرد .

ذاك تأويل .

وهنالك صمت راسخ .

تلك وحشة وثوان متمهلة .

وهذا رجل ينهشه الحزن والوجد .

الحديقة

بدا حائرين ، ولم يعرفا كيف يرتبان الخاتمة بشكل حضاري ، أخيرا قررا وضع حد لفترة الخطوبة التي لم تدم سوى شهر واحد ، في ردهة فندق فئة خمس نجوم .

خلع خاتم الخطوبة من بنصره الأيمن ووضعه أمامها بعد أن احتسى فنجان قهوة بدون سكر ، فيما لم تلمس كوب عصير البرتقال .

صدفة ، وعلى أحد مقاعد حديقة عامة وفي مساء خريفي ، التقيا بعد أربعين عاما .

تراكمت التجاعيد على رقبتها وظاهر كفيها ، أما هو فقد فقد نصف أسنانه وتآكل النصف المتبقي جراء تدخين التبغ واحتساء القهوة السوداء بدون سكر .

أخبرها أنه أجرى عملية على " البروستاتا " ويعاني من داء المفاصل ، وأخبرته أنها استأصلت أحد ثدييها وتعاني من القولون .

سألته : هل .. ؟

أجاب : كلا ، وأنت ؟

قالت : وأنا أيضا .. لم أتزوج .

شعرا ببرد المساء ، نهضا ، سارا معا عبر ممرات الحديقة المتعرجة كصديقين قديمين .

البيــت

للمرة الخامسة ، أو ربما السادسة ، يعيد ترتيب المقاعد في غرفة الجلوس ، على شكل نصف دائرة هذه المرة تقابلها طاولة مربعة فوقها زهرية مرصَّعة بأصداف البحر.

في الركن الشمالي وأسفل النافذة المطلة على الحديقة وضع خزانة صغيرة للكتب وداخلها جهاز الهاتف ووارى سلكه خلف ستارة النافذة.

ابتعد قليلاً ليعاين هندسة المكان ، حمل عدة طنافس ووزّعها في المساحة الفارغة لتكون مع المقاعد دائرة شبه كاملة.

قال لنفسه: لو أن (جمانة) معي الآن لرتّبت الأثاث في وقت أقصر.

لقد جذبته هذه الفتاة التي تنطق السين ثاء منذ أن جاورتهم أسرتها ، شيء ما جذبه نحوها وحتى هداياها مميزة ، لقد أهدته ذات يوم عدة فراشات محنَّطة ، ولكن أجملها فراشة الليل ذات اللونين البرتقالي والأسود ، وأهدته مرة أخرى كائنات بحرية كنجم البحر وبعض الودع و (توتياء الرمال) ليضعها في حوض سمك الزينة.

اتجه نحو المطبخ وغيَّر مكان الثلاجة لتكون قرب الباب وتأكد من

أن باب الثلاجة وباب المطبخ يفتحان في ذات الاتجاه ، أما موقد الغاز فوضعه جوار النافذة كي لا تتسرب رائحة الطعام إلى داخل البيت ، وفي المنتصف وضع طاولة الأكل ذات المفرش المقلّم وكرسيين متقابلين .

كان يذاكران معاً ويلهوان معاً ولكنه انقطع عن زيارتها حين قال له والدها ذات يوم : اسمع .. ابنتي لا وقت لديها للهو .. هيا اغرب عن وجهي .

كانت غرفة النوم صغيرة ففكر في الاستغناء عن بعض قطع الأثاث .. احتفظ بالسرير المزدوج وخزانة الملابس وأخرج جهاز التلفزيون والكرسي الهزاز .. وقال لنفسه : لا معنى لوجود كرسي يجلب النوم في غرفة مخصصة للنوم ، أما " التلفزيون " فقد قال والده مرة إنه لا يجلب إلا الصداع .. ولقد تحقق من صدق كلام والده ، فأغلب القنوات تردد أخبار الإضرابات والاحتجاجات والمجاعات والصدامات والانقلابات والاغتيالات .

حمل جهاز التلفزيون ورماه في صندوق مكعّب ووضعه في مرآب السيارات خلف المنزل . لديه شاحنة صغيرة وتملك جمانة سيارة رياضية حمراء اللون .

ودّا لو يبنيا بيتهما كما شاءا ، وأن تكون لهما حياة مشتركة بعيدة عن أنوف ووساوس الآخرين ولذا ابتكرا ذات يوم لغة خاصة بهما تعتمد على الأرقام بدلاً من الحروف .

وزّع خارج البيت عدة شجيرات استوائية وأحاطها بسياج خشبي قصير.

لقد افتقدها الأسبوع الماضي نتيجة إصابتها بلفح برد، فاحمر أنفها وذبلت عيناها، ولم يجرؤ على عيادتها خوفا من والدها الذي لم يره مبتسماً قط.

رن جرس البيت وتناهى إليه صوت أمه قائلة:

- فارس .. لقد حضرت جمانة لتلعب معك.

قفز من مكانه منشرحاً ولكنه تعثر بالبيت الذي بناه منذ قليل .. تبعثرت القطع الصغيرة واختلطت .. ابتسم وقال: سنعيد معاً ترتيب البيت، وربما على نحو أفضل مما كان عليه.

الصقيـــع

كنت حريصاً ، منذ قدمت إلى فرنسا على متابعة نشرتي الأخبار والطقس ، كل ليلة .

فنشرة الأخبار تساعدني على متابعة ما يجري في العالم ، في حين تحدد لي النشرة الجوية نوع الملابس الواجب ارتداؤها في اليوم التالي ، كلبس المعطف أو حمل مظلة أو القفاز وهكذا ... وخاصة في فصليّ الشتاء والخريف حيث تنخفض درجات الحرارة ، غالباً إلى ما دون الصفر.

يحدد الطقس نوع الملابس وكذلك الطعام .. فيزداد تناول الدهن والسكريات ، ويحدد أيضاً نمط السلوك كالاقتصاد في الحركة والتنقل والسهر.

كنت أتأهب ذات صباح شتوي للذهاب إلى معهد اللغة ، وقفت بالردهة الكئيبة بالطابق الخامس بانتظار قدوم المصعد وما أن وصل خرجت منه إحدى جاراتي ، والتي تقطن في نفس الطابق، تحمل بيدها نصف رغيف من الخبز.. أفسحت لها الطريق وألقيت عليها تحية الصباح ... ترددت برهة قبل أن تجيبني بنفس التحية مستخدمة لفظ سيد .

ما إن خرجت من البناية حتى لفحتني النسمات الباردة القادمة

من شمال القارة الأوربية .. أحكمت إغلاق ياقة المعطف حول عنقي وارتديت القفاز.. إلا أن البرودة بدأت تتسرب إليَّ من خلال الحذاء .. أسرعت الخطى لبعث الدفء ولتقليل فترة ملامستي للأرض الباردة والمغطاة بالجليد الخفيف الشفاف ، محاذرا في نفس الوقت مغبة الانزلاق ، فنعل حذائي لم يكن مخددا بشكل كاف للسير على الجليد .

في الواحدة ظهرا قفلت عائدا إلى شقتي لأتناول وجبة الغداء كما هي ، الفرنسيين ، وأثناء مسيري إلى شقتي ، عبر الردهة ، رأيت جارتي التي حييتها صباحاً ، بادرتني بالتحية وسألتني بأدب جم إن كان لدي وقت كي أزورها لتناول الشاي .

طلبت منها أن تكرر لي ما قالت خشية أن أكون قد أسأت الفهم لا سيما وأنا حديث عهد بلغتهم .

رددت ببطء: أنا أدعوكم لتناول الشاي ، هذا المساء ، إن شئتم.

وفي الحقيقة كانت دعوتها هذه مفاجئة كبيرة لي ، فليس من المعتاد أن يدعوك أحدهم وإلى بيته دون سابق معرفة ، خاصة نحن ذوي السحنة الشرقية ، اللهم إلا إذا كانت ثقته بك عالية .

أجبتها بعبارات تعني الموافقة .

سألتني عن الوقت المناسب لي .

فكرت قليلاً ورأيت أن الخامسة تبدو مناسبة لي : بُعيد انتهائي من الدراسة المسائية .. وأبكر من وقت تناول وجبة العشاء .

قلت : الخامسة ؟

أجابت : اتفقنا .. شقتي مجاورة لكم .. إلى الخامسة إذن .. طاب يومكم .

تركتني هذه المرأة الخمسينية متسمراً أمام باب شقتي، ورائحة عطرها يملأ الردهة ذات الأرضية الخشبية العطنة.

في طريق عودتي من المعهد احترت : ماذا أحمل معي؟ وأخيراً استقر رأي على الزهور ، فعرجت على أحد المحلات وزادت حيرتي أكثر.. ماذا أختار ؟ فلكل زهرة معنى ، ولكل لون مغزى ، ولكنني فضلت أخيرا أن أحمل لها أصيصا من نبات الظل ، فهي حيادية تماما ولا تحتمل أي تأويل .

في الخامسة وأمام باب شقتها ، فكرت : كيف تدعوني إلى منزلها رغم أننا لم نتبادل الألقاب ؟ ضغطت على الجرس لمرة واحدة ، فتحت الباب واستقبلتني بابتسامة مرحة مرتدية ثوباً بنفسجيا ذا طراز تقليدي .

ـ أهلاً ... تفضل .

شكرتها وناولتها أصيص نبات الظل المغلف بورق (السلوفان) .. بدا الامتنان على وجهها ، شكرتني مراراً حتى شعرت بالارتباك أمام مشاعرها حيال هذه النبتة الصغيرة .

قالت : أشكرك .. أشكرك كثيراً .. يا الله ما أجملها وما أرقها .. وطلبت مني الدخول مبدية أسفها على وقوفي لحظات نتيجة انشغالها بالنبتة التي جلبتها معي .

ناولتها معطفي وتوجهت نحو غرفة الضيوف وجلست على مقعد جلدي مفرد .

نزعت الورق المغلف برقة وحذر جراح . وضعت الأصيص على أحد أرفف المكتبة وسط صورتين ضوئيتين أحداهما لامرأة شابة بين أحضانها طفل مكتنز وأخرى لكهل عابس بشارب كث وغليون معقوف.

قالت جملة لم أتبين مفرداتها وبادرت بإنجليزية واضحة : هذه صورة زوجي .. ابتلعه المحيط في رحلة صيد لم يعد منها أبداً .. وتلك ابنتي الوحيدة وطفلها .

أدارت لي ظهرها وتوجهت نحو المطبخ .

تأملت " الصالون " .. بدت على الفور الأناقة ظاهرة .. الستائر المخملية والسجاد السميك .. والسقف المزين بنقوش آسيوية حيث تتدلى ثريا كبيرة نوعاً ما .. المقاعد جلدية ووسائد صغيرة بألوان قوس قزح .. ولوحتان مقلدتان لـ " بيكاسو " وتتناثر نباتات الظل والزهور الملونة كذيل الطاووس .. تحتل المكتبة جداراً بأكمله وتحتوي على أرفف بها كتب مجلدة تجليداً فاخراً .. يتوسطها جهاز تلفزيون بجانبه جهاز عتيق للأسطوانات .. وفي الركن مكتب فوقه جهاز حاسوب إلى جانبه مجسم ذهبي اللون للأهرامات وتمثال صغير لبومة شاخصة .. كان "الصالون" يجمع بين وقار الكلاسيكية وحيوية الحضارة المعاصرة.

عادت تدفع أمامها منضدة متحركة .

قلت بإطراء : هذا " الصالون " ينمَ عن ذوق رفيع .

انتشرت حمرة خفيفة على وجنتيها ، وقالت : في الواقع أعيش الآن وحيدة .. ولا أحب اقتناء القطط أو الكلاب مثلما يفعل أغلب العجائز.

سألتها : هل تسكن ابنتك هنا .. أعني في هذه المدينة ؟

سكبت الماء المغلي في قدحي الذي تدلى منه خيط كيس الشاي وسألتني : كم قطعة سكر ؟ قلت : واحدة من فضلك .

ناولتني كوب الشاي وصحن صغير يحتوي على قطعتين من فطيرة التفاح الشهيرة هنا .

قالت : إنني أجيد صنع هذه الفطيرة .. ابنتي تسكن في (نانت).. تعمل بمصلحة البريد .. إننا نتبادل الرسائل القصيرة من حين لآخر.. وعبر الانترنت .. زارتني لآخر مرة في شهر مايو الماضي .. أي منذ تسعة أشهر تقريبا .. بعثت لي رسالة في عيد رأس السنة تتمنى لي عاماً سعيداً .

لم أعثر على كلمة أقولها فتشاغلت بتناول فطيرة التفاح .. وسألتها إن كان بإمكاني تدخين لفافة تبغ .. قالت : بكل سرور..

وأردفت بالإنجليزية : تصرف وكأنك في بيتك .

سألتها وبالانجليزية أيضا : أرى أنك تتحدثين الإنجليزية بطلاقة .

قالت : نعم .. لقد كنت مدرّسة للغة الإنجليزية في المرحلة الثانوية.. كما أنني أجيد الإيطالية أيضا ، فقد عشت عدة سنوات في روما .. وقليلا من الألمانية .. وأنت ماذا تفعل ؟

أجبتها : حالياً أدرس اللغة الفرنسية وبعدها سأسعى لنيل شهادة الماجستير. قالت : أتعرف إنني حتى الآن ما زلت ارتكب بعض الأخطاء في اللغة الفرنسية وخاصة حين أكتب بها ..

الفرنسية جميلة ولكنها صعبة لمن لم يتعلمها منذ الصغر .. لذلك أشفق عليك ومهمتك ليست هينة .

قلت : معك كل الحق .. ولكن هذا قدري .

ابتسمت وقالت : أحي فيك هذه الروح .. أتمنى لك من قلبي النجاح .. وأرجوك لا تتردد بطلب مساعدتي .

فرغت من تناول الشاي فاستأذنت بالمغادرة .

قالت : بالطبع .. أنني أقدر بأن وقتك ثمين .. وأنا كما ترى أبعثر وقتي بين " التلفزيون " و " الانترنت " .

عند باب الشقة ناولتني معطفي وكررت شكرها لهديتي وقالت: سأتولاها بالرعاية .. فهذه النبتة تحتاج إلى كمية محددة من الضوء كل يوم .. وإلى كمية صغيرة من الماء كل ثلاثة أيام .. وإلا ستموت .

وقبل أن تغلق باب شقتها قالت : أتعلم أنني منذ سكنت هنا من أربعة أعوام لم أسمع كلمة نهارك طيب من قاطني هذه البناية .. كما أنني لا أفضل إنفاق بقية عمري مع القطط والكلاب .. أرجوك زرني كلما سمح وقتك .

أومأت برأسي علامة الموافقة .

اتخذت طريقي إلى شقتي وتناهت إلى مسامعي السيمفونية الخامسة لـ (بتهوفن) تنطلق من شقة مضيفتي ، التي لم أتبادل معها الألقاب .

اللُعبة

جاءتني صورتي في المرآة لتنبهني إلى ضرورة قص شعر رأسي فتوجهت في المساء إلى محل حلاقة بجوار البيت .

ما إن فتحت الباب وهممت بالدخول حتى تسربت إليَّ روائح عطرية .

- أهلاً وسهلاً .. تفضل .

كان المحل خالياً من الزبائن فحظيت بمعاملة خاصة، أشتغل مكيف الهواء وألقم جهاز التسجيل بشريط "لأم كلثوم" هُرع الصبيُ نحوي طالباً مني الجلوس فجلست ، فتح الصبي الصنبور وجسَ حرارة الماء ثم أومأ لي مبتسماً فدفعت رأسي أسفل الصنبور ، دعك شعري بنعومة مستخدما " شامبو " له رائحة جوز الهند .

جلست على مقعد آخر ، طوقتني منشفة بيضاء وأحكم ربطها حول عنقي .

- شاي ؟

- شكرا .

- قهوة ؟

- أشكرك .

- سيجارة ؟

ولأنهي هذا الود المصطنع أجبته : لا أغير سجائري .

أخرجت علبتي فتعمَّد الحلاق أن يبطئ من حركته حتى يُشعل لي سيجارتي أولاً فشكرته .

كان الحلاّق كهلاً وبدا شعر رأسه أسود فاحماً .. لا ريب أنه يستعمل صبغة للشعر ، فسواد شعره غير طبيعي .

انتحى الصبيُّ جانباً وظلَّ يرمقني عن بعد .

انبعث صوت " أم كلثوم " من آلة التسجيل :

"وانتبهنا بعد ما زال الرحيق   وأفقنا ليت أنّا لا نفيق"

هزَّ الحلاق رأسه طرباً وقال : الله .. الله .. هذا هو الفن يا أستاذ.

أومأت برأسي علامة الموافقة ، وكانت هذه الإيماءة كافية ليحاضر عليَّ في الفن المقارن بين عمالقة الطرب قديماً والهرج الذي نسمعه هذه الأيام .

قال : زكريا أحمد وعبد الوهاب وفريد .. لا يمكن أن يظهر أحد بعدهم .

قلت : صحيح .

قال : المطربون الآن مثل الورد الصناعي : لا لون ولا طعم ولا رائحة .

سقطت خصلات من شعري أمامي ، طغى الشيبُ وانحسر اللون الأسود .. كيف لم أنتبه إلى هذا من قبل ؟

قال الحلاق : كانت الحياة أجمل وأكثر بساطة .

- ....

تذكرت فجأة جدة أمي ، كانت طاعنة في السن وأذكر أن خصلات شعرها حمراء ، سقطت أسنانها كلُّها وبعد سنوات عديدة ظهرت أخرى مكانها .. اعتدنا اللعب معاً ، وحين أخطف منها إحدى ألعابي تولول باكية كطفلة في الخامسة وتذهب تشكوني إلى أمي فتنزع اللعبة من بين يدي وتعطيها إيّاها .. نعود نلعب مجدداً وأخطف اللعبة فتعود جدتي لتولول من جديد وهكذا .. إلى أن سألت عنها ذات يوم فقيل لي : لقد ماتت .

- حتى كرة القدم تحكمت بها المادة ولم تعد تمارس كهواية

لا أعرف كيف انتقل كلامه من الفن إلى الرياضة .

" يقظة طاحت بأحلام الكرى   فتولّى الليل والليل صديق "

قال الحلاق : لم يعد ثمة أصدقاء في هذا الزمن .

كنّا شلّة واحدة وفي نفس الفصل ، اعتدنا أيام العطلات أن نذهب إلى إحدى الغابات لننصب الفخاخ وأتولى تنظيف العصافير من أحشائها ثم نشويها ونشترك بتدخين سيجارة ونعود إلى بيوتنا عند المغيب .

ذكر الحلاّق كلاماً مبعثراً عن : الزحام والتلوث وارتفاع الأسعار والعنوسة والبطالة والانتفاضة ..

طلبت قهوة بدون سكر .

" فإذا النُّور نذيرٌ طالعٌ وإذا الفجر مطلٌّ كالحريق "

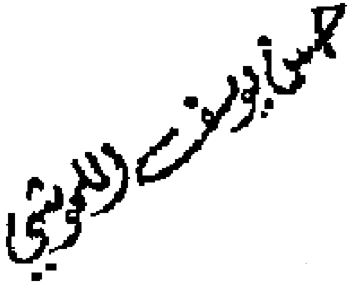
دفع الصبيُّ أمامي فنجان القهوة ، ازداد الشيب كلما سقطت خصلات شعري .

- نعيماً .

تناول الحلاق مرآة صغيرة ووضعها خلف رأسي ، رسمتُ ابتسامة عريضة حين رأيت منطقة قاحلة في منتصف الرأس ، تواطأ الحلاّق معي بابتسامة أعرض .

فرغت من الحلاقة والقهوة ، وفرغت " أم كلثوم " من أغنيتها ، نقدته أجرته وإكرامية للصبي ، توجهت إلى البيت دون أن أعرف . حتى الآن . السبب الذي يدفع جدة أمّي للنواح كلّما انتزعت منها إحدى لعبي.

المقـهـى



مللت الجلوس كالأبله أمام التلفاز لساعات طويلة ، حتى إنني حفظت عن ظهر قلب أغلب الإعلانات التجارية والتي تشترك جميعها في نزع ملابس الصبايا وإظهار المخفي منهن ، بما في ذلك إعلانات معاجين الأسنان ومنتجات الألبان ، بل وحتى المأكولات التي تتناولها القطط السعيدة والكلاب المدللة " في بلاد الفرنجة بالطبع" .

خرجت من شقتي ودلفت إلى المصعد الذي هبط بي الأدوار الستة وفتحت صندوق البريد ولم أحظ برسالة ما من أي ستة مليارات من البشر في هذا الكون .

خرجت من البناية دون أن أسمع أي صوت وكأنني مرقت خلال مقبرة في ليلة شتائية .

توجهت نحو مقهى في زاوية تقاطع شارعين رئيسيين في هذه المدينة ذات السمعة الحسنة باحتضانها للطلبة والمتقاعدين والمسنين.

حين دخلت المقهى مسحت المكان بنظرة سريعة حتى وجدت طاولة دائرية ذات مقعدين متواجهين ، اتجهت نحوها وأعطيت ظهري للجدار ، وهي إحدى عاداتي المتأصلة والتي تمنحني شعوراً بالأمان وفي نفس الوقت أتمكن من مراقبة حركة الداخلين والخارجين.

تحلق حول الطاولات الأخرى الدائرية والمربعة أصناف من البشر، ولكنني كنت الوحيد الذي يجلس منفرداً مما زاد من كآبتي، حاولت إعطاء نفسي " وربما الآخرين الذين لا يعنيهم شأني " مبرراً بركوني للعزلة وانفرادي بذاتي فأخرجت رواية جيب وشرعت بالقراءة.

النادلة الشابة " بريجيت " تنتقل بين الطاولات بخفة فراشة ونشاط نحلة ، تلبي طلبات الزبائن ، موزعة ابتسامات مشرقة على الجميع حتى ليظن كل زبون أنها خصته وحده بها ، أشرت لها من بعيد فعرفت طلبي وأومأت برأسها .

حاولت تناسي مشاكلي بالقراءة حيناً والاستماع إلى ثرثرة الزبائن والأغاني التي يبثها جهاز التسجيل حيناً آخر.

أحضرت لي " بريجيت " فنجان القهوة ومعه كوب ماء ، شكرتها فابتسمت ، وفي تلك اللحظة دخل كهل وجلس منفرداً إلى طاولة قريبة من طاولتي ، وبعد برهة تقدم نحوي وطلب مني إشعال سيجارته ففعلت ، شكرني ثم اقترح أن ننضم إلى طاولة واحدة فدعوته للجلوس.

أخذ الرجل يثرثر، وبدا من لهجته أنه من سكان الجنوب الفرنسي ، سألني عن موطني فأجبته أنني من سكان شمال أفريقيا، علّق : لديكم صحراء رائعة وشمس طوال العام ، أليس كذلك ؟

أخذ يشرب الجعة بنهم ، طلبت فنجان قهوة آخر فأصرّ على

أن يدفع ثمنه .. حكى لي عن صديق لـه يعيش الآن وحيداً ، تزوج منذ عشر سنوات ولديه صبي وفتاة .. إلا أن خلافاته مع زوجته تفاقمت واكتشف ذات يوم أنها قد هجرته للأبد ، شرحت لـه فـي رسالة قصيرة علقتها على باب الثلاجة أنها قد ملّته .. وأنها ستأخذ الأولاد معها وستذهب إلى بيت أهلها في الشمال .. وأنها لم تكن سعيدة معه طيلة فترة الزواج ، وأنه . بالنسبة لها . لم يكن سوى آلة لإنجاب الأولاد .. وأنه عاطل عن العمل ولا خير فيه ، يقضي يومه باحتساء الجعة .. وأنه أقل قيمة من منفضة السجائر.

التفت نحو أمريكي فارع الطول ، ألقى طرفة بذيئة لم يضحك لها أحد سواه .

سألته : ولكن صديقك هذا مسؤول عن إعالة أسرته .

أجاب : وماذا يفعل إذا لم يجد عملاً ؟ هل يسرق ؟ إن المعاش الضماني لا يكاد يكفي أجرة المنزل والكهرباء والتدفئة ، لقد اضطر إلى شرب الجعة وتدخين أرخص أنواع السجائر .. فماذا يفعل هه .. قل لي بربك ماذا يفعل؟

قلت : وماذا حدث بعد ذلك ؟

أجاب: أرسلت لـه زوجته تخبره أن الأولاد اعتادوا على غيابه .. وأنها تعيش الآن مع صديق هجر زوجته .. وأن الأمور تتحسن .. وخير لـه أن يبدأ حياته من جديد .

أشــعل ســيجارة " جلــواز " الرخيصــة الــثمن .. اســتأذنته بالانصراف .. شكرني بود لأنني منحته قليلاً من الوقت . قلت لـه إنني أتردد كل صباح على هذا المقهى .

ودعته وذهبت لجلب معطفي ، مررت به فوجدته يتأمل صورة لصبي وفتاة يرتديان زي " بابا نويل " .

القطار

ابتعت صحيفة " لوموند " ، ومجلة رخيصة واسعة الانتشار مخصصة لاستطلاع الأبراج والنجوم واستشراف المستقبل ، أستخدمها للتعارف إذا صدف وجلست بجواري فتاة فرنسية يانعة وتعاني من وطأة الضغوط النفسية التي يخلِّفها العيش في المدن الكبرى " كباريس " مثلاً .

وجدت أن لديَّ نصف ساعة على موعد قدوم قطاري ، فقررت التجوال والتفرج على أصناف البشر الذين تعجُّ بهم محطة " قاردي ليون ".

اكتظت المحطة بالمسافرين والمودّعين والمستقبلين؛ كان المودّعون باكين والمستقبلون ضاحكين ولكنهم جميعاً يحملون باقات الزهور .

متحف حي من البشر ؛ أفارقة متفرنسون ، إيطاليون بأصواتهم المرتفعة .. أمريكيون "بالجينز" وشطائر "الهامبرجر" .. أسيويون بقاماتهم القصيرة وردود فعلهم البطيئة وعيونهم الضيقة التي تكاد تختفي حين يبتسمون .

قرأت بلوحة الإعلانات " الالكترونية " رقم الرصيف الذي سيحطّ به قطاري فاتجهت نحوه ووقفت في المكان المخصصَ لركاب الدرجة الثانية ، وقفت بجانبي عجوز أنيقة وبيدها باقة زهر .

سألتني : لقد تأخر القطار عن موعده ، أليس كذلك ؟

أجبتها : يبدو أن ثمة خطب ما .. هل تنتظرين أحداً ؟

قالت : إنني بانتظار ابني .

- هل هو قادم من " بيزانسون " ؟

- كلا .. من الجبهة .

استفسرت : أية جبهة ؟

قالت : من ألمانيا .

- ولكن هذا الرصيف مخصص للرحلات الداخلية .

قالت: اعتدت أن استقبله هنا .. سيأتي إلى هنا .. إنني متأكدة.

أردت تزجية الوقت فاسترسلت معها بالكلام .

- ولكن .. ولدك .. أعني ماذا يفعل في ألمانيا .

قالت : إنه مجنّد بالجيش ، ومعسكره بـ "ستراسبورج"، ذهب لإسقاط الحكم النازي .

سألتها : أي حكم ؟

- إنه يحارب لإسقاط " هتلر " .

قلت لها موضحاً: ولكن "هتلر" هذا انتهى حكمه منذ نصف قرن.

أجابت : كلا .. ابني يشارك في الحرب وسيعود .. إنني متأكدة سيعود .. ولذا أنا هنا .. طاب يومك .

تركتني حين سمعت هدير القطار القادم .

المـدينـة

وصفني أحدهم مرة بأنني كسول ، وفي الواقع فقد كنت أستلذ الاسترخاء وأعشق السباحة في عالم الأحلام عوض التسكع في الأزقة الكئيبة أو الهروب من شقاوة الصبية الذين يستمتعون بمطاردتي ويتفننون بابتكار الوسائل الغريبة لتعذيبي والتي لا تخطر على إبليس نفسه.

حلمت مرة بأبي الذي لم أره قط ، وأمي التي رعتني صغيراً وهجرتني كبيراً ، وحلمت مراراً بالجنة وتخيلتها تزخر بأطنان من اللحم والرحمة وصبية ملائكيين .

نمت هذا النهار بطوله دون أحلام ، وخرجت مساءاً بحثاً عن رزقي.

البرد قارس والظلام كثيف والشارع خال من البشر ، تقطعه من حين لآخر سيارات الأجرة التي تقلّ رواد الملاهي الباحثين عن أماكن أكثر دفئا وضجيجاً .

لم تفلح لافتات " النيون " أو مصابيح الإنارة الموزعة على طول الشارع في تبديد الظلمة .

جائعاً كنت ووحيداً فأخذت أجوس بحثاً عن طعام أو رفقة .

ألفيتُ ، عند تقاطع شارعين فرعيين حفنة من "عصفورات الليل" يتحلّقن حول نار تنبعث من برميل ، اقتربت منهن واستطعت تمييز روائح عطورهن الرخيصة ، تمسّحت بساق إحداهن ، ولكنها ألقت عليّ نظرة شاردة ثم لم تعرني أي اهتمام.

مضيتُ صوب أحد الشوارع الرئيسية ومررت أمام نزل صغير سيء الصيت ؛ لا يدقق في هوية نزلائه الذين يرتادونه لسويعات ، في حين يدفعون أجرة ليلة كاملة شاملة وجبة الإفطار الصباحي .

وقفت وسط ميدان يتوسطه تمثال برونزي لأحد المبجّلين بهذه المدينة واستطعت أن أميز بين أصوات تأتي من جهات مختلفة : شجار بين رجل وامرأة ، تحطم أوان وتهشّم مرآة ، جمعُ يطارد لصاً ، غناء جماعي لرجال منتشين ، همهمات ، صرير عجلات سيارة ، سعال امرأة عجوز ، مواء قبيح لهرين لحظة نزو ، بكاء طفل ولد للتو... ولكنها كلها لم تشغلني عن الجوع والبرد ، فعلّلت نفسي بالوقوف أمام مطعم ، بدت الإنارة بداخله جيدة ، زاد جوعي لدى رؤية سفود اللحم وانبعاث رائحة الشواء .

أحد رواد المطعم يحتسي الجعة ويدفن رأسه بين كفيه ويبكي على أنغام أغنية لأحد المطربين الزنوج ، فيما جلس كهلٌ مع فتاة شابة إلى مائدة تنتشر فوقها أسياخ اللحم المشوي مع شرائح الطماطم والبصل ، وبضعة صحون للمقبلات وأربعة أرغفة طازجة .

الكهل يدخن ويثرثر فيما انهمكت الفتاة بالأكل ، بدا جلياً أن

اهتمامها بالطعام أكثر من تركيزها على ما يلقيه الرجل من طرائف لأنه كان يضحك لوحده ، فيما كانت تجاريه بهزة من رأسها أدركت أنني لن أحظى بشيء ؛ فأحدهم كان غارقاً في حنينه مع أغنية المطرب الزنجي والفتاة تقاسي جوعاً كجوعي ، لذا قررت البحث في براميل القمامة المكوّمة في زاوية الشارع ، إلا أن هوس النظافة لدى سكان هذه المدينة كان مبالغاً به إلى حد مرضّي ، لذلك لم أجد ما يؤكل داخل هذه البراميل التي خلت حتى من علب الصفيح.

غيرت وجهتي إلى رصيف آخر ، عدوتُ مسرعاً خوفاً من سائقي سيارات الأجرة المخبولين .

شممت رائحة أنثى ، رفعت رأسي وتطلعت فرأيتها تقف أسفل أحد مصابيح الإنارة ، اتجهتُ صوبها وحين اقتربت منها تمهلت وكأنها لا تعنيني ، مشت أمامي بدلال ، قسمات وجهها متناسقة ، وانحناءات جسدها انسيابية ، ومن حسن حظي إنها تنتمي إلى نفس فصيلتي ، وتعاني الجوع والبرد وربما الوحدة مثلي .

درت حولها مرتين ولكن لم تصدر عنها أية إشارة مشجعة ، دفعني كبريائي أو " لعله جوعي " للابتعاد عنها فاستدرت باتجاه معاكس لها ومضيت .

رنوت إليها من بعيد فألفيت ذكراً يدور حولها ، أدركت أنه يتحرش بها ، نسيت جوعي وقررت بشهامة أن أذود عنها فرجعت نحوهما واقتربت منهما ، أخذ هذا الفاجر يتشممها في محاولة

مكشوفة للفوز بها ، وقبل أن أقدم على أية خطوة رزته جيداً .. بدا أضخم مني وتغذيته جيدة وينتمي إلى سلاسة عريقة وتطوق عنقه سلسلة ذهبية.

في الواقع عزفت عن الشجار ، أو بالأصح لم أكن أرغب بالتورط في معركة خاسرة معه .. وتلقي هزيمة قاسية أمام هذه الأنثى الوديعة ولكن في لحظة شطط استجمعت ما لدي من عزم وأعلنت له بوضوح عن رغبتي في منازلته ، ربما لأنني وإياها ننتمي إلى فصيلة واحدة .

التفت نحوي وصوب إلي نظرات نارية ، شعرت عندها إنني هالك ، ولكن لم يكن أمامي الآن أية فرصة للتراجع ، لذلك استنفرت بقية من شجاعة وتأهبت بانتظار خطوته القادمة .. مرت لحظات مصيرية شعرت خلالها بخفقان قلبي وارتعاش مفاصلي .. ولكنه استدار وانصرف إلى حال سبيله ، شعرت بعمق إهانته لي ، والأنكى من هذا أنها نظرت نحوي باشمئزاز وأسرعت تعدو خلفه .

قفلت راجعاً بانكسار ، مررت على مطعم الوجبات السريعة وتناهى إلى مسامعي نواح المطرب الزنجي ، اتجهت نحو لوحة تحمل إشهاراً لنوع جديد من "النقالات"، رفعت قائمتي الخلفية وتبولت .

العفــريتة

كعادتنا ، تحلقنا أنا وأبناء عمومتي حول جدي في ليلة شتائية باردة ليقصّ علينا " خراريف " حفظها عن جدّه .

كانت الإنارة الوحيدة تنبعث من " كانون " الفحم الذي أخذت جمراته في التوقد تحت الرماد ، وكنا نجلس أو نتمدّد على " نطوع " الخرفان التي تمت التضحية بها في أعياد سابقة ، فيما تنقر حبات المطر على سقف الصفيح .

جدي أهتم وبدا الوهن يتسلل إلى يديه وكثيراً ما تخونه الذاكرة فينسى أسماءنا أو علاقات النسب التي تربط أحدنا بالآخر ، أو أين وضع المضغة ، ولكنه لا ينسى قط أدق تفاصيل الحكايات التي يسردها علينا ، كان يكررها تماماً دون أن يخلط بينها ، وقد حاولنا مراراً أن نمسك عليه غلطة واحدة أو نوقعه في تناقض ما فلم نفلح .

وحين نسأله عن أمر غامض أو واقعة لا تصدق يجيبنا: هكذا سمعتها عن جدّي .

وفي جعبة جدّي الكثير من الخراريف ، بعضها على لسان الحيوانات ، وبعضها الآخر عن الجنّ والعفاريت ... ولكننا جميعاً

تستهوينا حكايات الليل والسحر والعفاريت دون غيرها .. فقد كبرنا عن قصص الحيوانات وكنا أصغر عن إدراك قصص الحكم ونجد متعة في الحكايات السحرية والمفاجئات والخوف من المجهول .

حكى لنا جدّي عن ذلك البطل الذي نازل أشجع الرجال وهزمهم ، وصارع الوحوش فغلبها ، ولكن ركبه الرعب ذات أصيل حتى وقف شعر رأسه ، حين أردف على ناقته عفريتة تقمَّصت شكل امرأة تنتهي أقدامها بحوافر حمار .

وقصَّ علينا مغامرات ابن السلطان الذي امتلك مهراً نصفه جن ونصفه شيطان ، يستطيع الكلام ويقدر على الطيران .

حاولت تقليد جدّي بصنع حكايات خيالية ، بعد أن أدركت أن اللعبة تكمن في أنه كلما كان الوهم أكبر ، كلما كان تصديق الحكاية أقرب .

اخترعت سلسلة من الحكايات السحرية وأحكمت حبكتها ، وكانت النتيجة محبطة ، فقد اشتهرت بين أبناء عمومتي وأترابي بالكذب ، كانوا يستمتعون بقصصي ولكنهم لا يصدقونها .

قصصت عليهم عن بطل تسيَّد قومه لشجاعته ولكنه أمتحن ذات يوم لمواجهة " عفريت " يقطن جبانة القرية ، وكان الرهان أن يبيت ليلته فيها ، وفي منتصف الليل سمعوا صوته طالباً الرحمة ، ثم رأوه يجري بأقصى ما لديه من سرعة ، عارياً كما ولدته أمه ، وعرف

الناس أن العفريت ظهر له وطلب منه خلع ملابسه ، ومن يومها صار أضحوكة القرية ، ولكن لم يصدق حكايتي أحد .

ذات مساء رجوت أبي أن أبيت عند جدّي ، سمعت حكاياته ونمت مع جدتي في غرفتها التي تفوح منها رائحة القرنفل .

نهضت ليلاً لأتبول ، فيما كانت جدتي تحلم بليلة زفافها ، خرجت من الغرفة متجهاً إلى الحمام وأنا أكاد أموت من الرعب ، فقد انهالت علي كل حكايات الجن والعفاريت دفعة واحدة ، وحين دخلت الحمام تراءت لي في الظلام صور العفاريت بأحجام صغيرة وعيون شيطانية ، وتراءى لي مارد من نار ومسخ له عين واحدة .. تبولت وخرجت مسرعاً دون أن أرفع بنطالي ، ولكنني تجمدت رعباً في السقيفة حين شاهدت عفريتة تقمّصت شكل ابنة عمي تمرق من باب البيت وتتجه إلى غرفتها وهي شبه عارية ، كانت تشبهها تماماً ولكن لم تكن أقدامها تنتهي بحوافر حمار .

ابتسمت العفريتة لي فرفعت بنطالي وهرولت مذعوراً إلى جدتي وجسدي يبلّله العرق رغم برودة الليل .

بتّ ليلتي تلك ساهراً حتى الفجر .

في الصباح حكيت لجدي وجدتي ما رأيت ، لم يصدقاني ، وألقت جدتي اللّوم على جدّي لأنه ملأ رأسي بالخراريف الفاسدة .

عـنـد الظهـيرة رأيـت ابـنـة عمـي ، أردت أن أحكـي لهـا عـن العفريتة التي تشبهها ولكنها ابتسمت لي كما فعلت تلك معي ليلة البارحة ، فقررت الصمت خشية أن أوصف بالجنون .

الشـيء الذي حــدث

لم يلق بالاً إلى غياب منفضة السجائر عن مكانها ، في السابق كان يلومها على ذلك ، انشغل بتصفح مجلة فيما كانت تجلو الصحون في المطبخ وكان بوسعها أن تتكهن بما يفعله في هذه اللحظة : يجلس ـ كعادته ـ بعد كل عشاء ليدخن ويقرأ ، وبجانبه منضدة زجاجية صغيرة فوقها منفضة السجائر ، وحين تستغرقه القراءة ينسى موقع المنفضة مما يجعل رماد السجائر يقع على السجادة ، ويترك أثراً لا يزول بسهولة .. كانت تلومه على إهماله .. وكان يبتسم لها كطفل أساء التصرف .

بدا له ـ أثناء القراءة ـ أن المشكلة كلها في غاية السخف ، ودّ ـ في أعماقه ـ أن تنتهي هذه الليلة الثقيلة على أي نحو كان .

بدت لها عاداته المزعجة أمراً يمكن التآلف معه ، ولا تستحق أن تثور من أجلها .. الغريب أن هذا الخاطر عنّ لها الآن فقط بعد أن اتفقا على إنهاء ما بينهما مع مطلع شمس الصباح .

في البداية آمنا بأن الحب وحده يكفي لإزالة كل العثرات .. والآن صارا يعتقدان بأن الحياة ما هي إلا مواقف صغيرة تتراكم مع الزمن .

أدار جهاز التسجيل فانبعث صوت " فيروز " ، انتبه للمرّة الأولى في حياته إلى مسحة الحزن في صوتها ، وكأنه رجع بعيد ، شجيً مفصول عن الموسيقى والكلمات .. كانت هذه الأغنية بالذات المفضّلة لديها ، رفع صوت المسجل قليلاً لتتمكن - وهي في المطبخ - من سماع أغنيتها العزيزة على قلبها ، تخيّلها الآن تجلو الصحون مرتدية قفازاً مطاطياً رقيقاً .

كلاهما - هو في الصالة وهي في المطبخ - يستمع إلى الأغنية ، وفي نفس الوقت يرهف السمع نحو الآخر ولا يستطيعان تخيل ما حدث وما سيحدث ، تمنيا - في أعماقهما - أن يبادر الآخر بالمصالحة ونسيان الأمر برمّته .

طرقَ خاطره أنها السبب فيما حدث ، فهي قد أذنبت كثيراً في حقه ، ولطالما سامحها على عثراتها ، إلا أنه لم يعد يحتمل منغصاتها اليومية .

أتت إلى الصالة حاملة الشاي ، تناول كوبه ، وظلا يحتسيان الشاي في صمت ، تشاغل بتصفّح المجلة ، وتشاغلت بالعبث في سلسلة تطوّق عنقها ، إلا أنها أبعدت يدها فجأة حين تذكرت أنه أهداها لها في أول عيد زواج لهما ، كانت تنظر إليه خلسة فيما هو مستغرق بالقراءة ، بدا لها أنها تشرب الشاي مع رجل غريب .

أرجعته صورة في المجلة إلى عدة سنوات مضت ، حين تعرّف

عليها لأول مرة ، وتكررت لقاءاتهما في ركن مقهى يشرف على شاطئ البحر ، لم ينتبه حين غيّرت الشريط في جهاز التسجيل .

وقبل أن تعود إلى مقعدها هزّتها ذكرى مرضها ذات ليلة ، تذكرت كم عانى حين أسرع بنقلها إلى المستشفى حيث أجهضت في تلك الليلة المطيرة ، كان بوسعها . حين حُملت على نقالة المستشفى . أن تسترجع صورته وهو يستدير ليخفي قلقه ، فما الذي بدّله ؟

نهض ، أطفأ السيجارة في منفضة بالمطبخ ، في طريق عودته إلى الصالة خاطب نفسه : لم تستطع أن تفهمني أبداً..

ألا تقدر عشرات الضغوط اليومية التي يتعرض لها في العمل والشارع وسوق الخضروات والجيران والالتزامات الاجتماعية والسعي الدائم لتأمين المستقبل لأسرته ؟ هذه المتاهة التي تشبه لعبة صينية .. لها بداية ولكنها لا تنتهي أبداً.

حاولت من جانبها أن تشرك أصدقاءهم لحل مشكلاتهم ، إلا أنها اكتشفت بعد عدة محاولات أنهم يعقدون المشكلة عوض حلها فأقلعت عن ذلك .. أنها لا تكرهه .. ولكنها تشعر بأن أحلامها لم يتحقق منها شيء .

نهض وجلب وسادة من الغرفة ونام في الصالة ، دخلت هي إلى غرفة النوم ، ناما وكلاهما مصمّم على أن يذهب كل منهما ، في الصباح ، إلى حال سبيله .

في الصباح تأخرا في الاستيقاظ، وحين نهضا أخيراً التقيا وسط الردهة مُسهدين ، كل منهما يحمل منشفته ، نظر كلاهما إلى الآخر وشعرا أن ليلتهما الماضية كانت قاسية ، وأن ما تصوّرا حدوثه في الصباح كان أقسى مما يستطيعان احتماله .

الكابـــوس

مرّة أخرى ، يدفعه "دش" الماء البارد إلى حافة الرعب.

هل داهمه ذلك الكابوس الذي ظلّ يحاصره منذ سنوات ، والذي حاول - عبثاً - دفنه بين طيّات الذاكرة ؟ أم أنه خاضع فعلاً لعملية استعادة للوعي ؟

قبل أن يصل إلى إجابة ، وقبل أن يهمَّ بفتح جفنيه ، تراءت له ذرات وامضة ملونة ومبعثرة .. استجمع حواسه المخدّرة كي يستجلي الوضع من حوله .

تركزت كل قواه على حاسّة السمع ، فاستطاع - وهو مغمض العينين - التقاط صيحات قريبة ، تلتها ضربات أمواج منتظمة ، فثرثرة بعيدة ، تتخلّلها موسيقى مختلفة الإيقاع ، ثم أطبقت على أنفه رائحة طعام ..

ببطءٍ وحذر فتح عينيه ، ثمة طائرة ورقية تسبح في السماء بذيل ملونٍ ومشدودة بخيط - لم يره - إلى الأرض .

سكنه الاطمئنان قليلاً ، فاستطاع أن يلملم بقية المعالم ليكتشف أنها "هي" التي كانت تسكب فوقه الماء البارد .

غرق في الغبطة، إلا أنه تظاهر بالغضب، يزداد في داخله كل يوم افتتاناً بالمداعبات الطفلية التي يعنّ لها - من حين لآخر - أن تشاكسه بها، استهواه ذلك التباين في الشقاوة المشاكسة وحضورها الأنثوي.

أطلّ وجهها فوقه عذباً وبريئاً، وبرز نهداها عبر المشد الصدري، سكنت عينيها وداعةٌ ومكرٌ ونداءٌ خفيٌ.

ظلت واقفة تسكب الماء البارد بانتظار ردّ فعله.

حاول أن يحرر نفسه أولاً من الغطاء الرملي الذي يغمره حتى العنق، كانت تعلم أنه اعتاد، كلّما ذهبا معاً إلى البحر، أن يدفن جسده في الرمل الساخن لامتصاص بقايا الرطوبة المزمنة من عظامه، شعر أن يديه قد تحررتا فبدأ بتحريك باقي أعضاء جسمه لتنزاح عنه كتل الرمل، فيما ظلّت بإصرار وعناد تسكب الماء كطفل مدلّل يمعن في مشاكسة والديه .. خفّ غطاء الرمل الذي يغمره فقام بحركة سريعة لإمساكها، انطلقت تعدو نحو البحر تسبقها ضحكات ساخرة، لم يستطع اللحاق بها، إلا أن المسافة بينهما أخذت بالتقلص، إلى أن دخلت البحر وتوغلت فيه إلى الحدّ الذي تدرك أنه سيحجم عن الوصول إليه ... توقف حين غمره الماء حتى صدره .. أعلن استسلامه طالباً منها الخروج خوفاً من غدر البحر، قال لها: البحر كالمرأة لا أمان له .. والإفراط في الاطمئنان له قد يحوّل اللهو إلى مأساة ..

أجابته : السبّاح الماهر لا يغرقَ بسهولة .

خرج من الماء ليضع حداً لتعنّتها .

أخفى بحركة مدرّية الأوراق والقلم تحت الفراش ذي النتوءات والتي تجعل النوم فوقه عذاباً .. أمسك بآنية الطعام بحركة غريزية .. هبّ واقفاً وانطلق مهرولاً فور فتح الباب إلى عربة الطعام وقفل مهرولاً كأنه في سباق المئة متر.

جلس على كرسي ، فيما تابعت السباحة مستعرضة مهارتها في العوم على ظهرها ، نشر الأوراق على الطاولة وسكب لنفسه كوباً من الشاي .

نهض فور انصراف العربة .. لم تكن لديه شهية للأكل فترك آنية الطعام في مكانها بجوار الباب .

أعاد قراءة النص الذي بدأ صياغته له منذ يوم الأربعاء ، قرأ بصوت عال : " مرّة أخرى يدفعه "دش" الماء البارد إلى حافة الرعب .. "إلى أن وصَل إلى الفترة التي وقف عندها " قفل مهرولاً كأنه في سباق المئة متر.." .

لم يعجبه ما كتب ، بدت له بعض الكلمات غير دقيقة ، كان يكتب القصة في المرة الأولى كاملة ، ثم يعود فيقرأها كلمة كلمة بصوت مرتفع في محاولة لضبط إيقاع الجمل وتجانس الكلمات .

يحاول دائماً أن بشكل صحيح ، مسترشداً بالحكمة القائلة

"ليس مهماً أن تكون واضحاً ، المهم أن تكون دقيقاً".

قرر إعادة صياغة القصة بشكل أدق حتى تصل إلى الشكل الذي يرضيه .

سقط ظل على الأوراق .

ـ ماذا تكتب ؟

ـ مشروع قصة .

ـ اقرأها لي .

ـ لم تكتمل بعد .

ـ اسمعني ما كتبت .

ـ لا أميل إلى إطلاع أحد على مسودات العمل قبل اكتماله .

انصرفت عنه .

بحث عن عقب سيجارة تحت فراشه وأشعله ، تمشّى بضع خطوات في الغرفة ثم جلس واحتسى بقايا الشاي البارد المتبقي منذ البارحة ، وفكّر في كيفية إنهاء الفقرة السابقة .. هل يجعلها تغضب ؟ أم تتقبل الأمر على أساس أن لكل كاتب طقوساً قد تبدو للآخرين ـ بمن فيهم من نحب ـ أمراً غير طبيعي ؟

كان يودّ لو تنتهي وقائع القصة كما حدثت له فعلاً في تلك الأيام الطيبة ، إلا أن كتابة الوقائع كما حدثت قد تجعل النص

يتحول إلى سيرة ذاتية .

في السنوات الأولى عاش على رصيده من الذكريات .. يجتر التفاصيل الدقيقة فينفض الغبار عن الحوادث المنسية: طفولته الشقية ، مقالب التلاميذ للمدرّسين ، المشاجرات التي دخلها في فترة الاستراحة وتستكمل في نهاية اليوم الدراسي ، حب المراهقة الأول ، وأول رسالة حب بعثها أو تلقّاها ، حبه المؤود لجارته التي تكبره بعشر سنوات ، رحلات صيد العصافير في الغابة التي تقع على أطراف المدينة ، تجاريه الأولى في التدخين السِّري ، جرائمه المشينة في مطارده جراء القطط والكلاب وبيعها في سوق الجمعة ، أيام الامتحانات التي تمنعه من الذهاب إلى البحر... كانت كل الندوب والمسَّرات الصغيرة تبدو له حين يتذكرها طازجة وحارّة وكأنها تتحدث للتوّ.

إلا أنه وفي السنوات الأخيرة أخذت تهاجمه أحلام اليقظة بحدَّة ، وكان يلمّ به إحساس غريب بأن حياته الماضية كلها ما هي إلا حلم عبر، وأن الذين عرفهم وأحبهم مجرد أطياف أو أجساد يتخلّلها الهواء .. وحتى الوجوه يحاول لململة تفاصيلها عبثاً .. ماعت في ذاكرته الأسماء واختلطت الوجوه .. ولا يبدو حقيقياً سوى الغرفة وآنية الطعام والوقت الرتيب .. ترى هل سيذهب مع حبيبته إلى البحر يوماً ما ؟ هل ستطهّره الطبيعة والهواء النقي والشمس من أحزانه التي تتراكم كل لحظة ؟

كل شيء حوله يخاطبه بلغة صامتة ومرعبة بأنه سيصبح ذات يوم إنساناً معطوباً ، وبأنه سيذوي ببطء وسيجف بداخله رحيق الحياة ولن يتبق منه سوى كومة من العظام ، وسيتنكر له العالم الذي أحبه .. كان الوقت .. ذلك المصارع الشرس والذي لا يرى .. يؤكد له في كل لحظة أنه لن يتركه إلا إذا تأكد أنه لم يبق في داخله ما يضيء ولن يكفَّ عن مهاجمته إلا بعد أن ينطفئ من تلقاء ذاته ويصير هباءً كأنه لم يكن .

جمع الأوراق وركنها جانباً وانطلق نحوها في محاولة لاسترضائها ، سابحاً في البحر ، مهملاً نصائحه السابقة ، متناسياً حقيقة أنه لا يجيد السباحة ، مطمئناً إلى وجودها قربه وأنها ستنجده إذا ما تعرض للغرق .

الـوجبـة

كابوس الموتى

تربعت امرأة أربعينية تميل إلى البدانة على العشب تلتهم رأس زوجها الممدد وتتجاذب الحديث مع شاب يشاركها الأكل مفضلاً أطراف الزوج الطريح .

تجمع آخرون حول جثة فتاة لم تبلغ الحلم ، فيما حاول كهل الهروب والاختباء في أحد الأزقة .

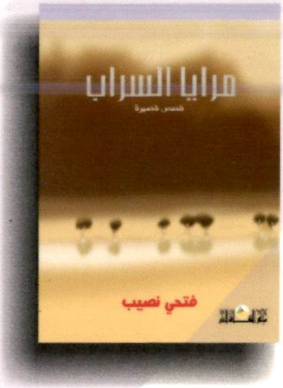
شلّني المشهد ، ولم أعرف سبب هذا الجنون الجماعي . انتبهت إلى أصوات صارخة خلفي ، اجتمع حشد يراقب مدحلة تطحن أجساداً غابت ملامحها .. فيما تكفل آخرون بقطع الأشجار وتحطيم أحواض الورد وتهشيم واجهات المحلات الزجاجية .

مر بجانبي أحدهم ونظر إليّ ملياً ثم ذهب إلى وجهة أخرى . أدركت أنني إن لم أشارك بطقس الجنون هذا فسوف أصبح ضحية لا محالة .

وصدق حدسي ، فقد عاد الذي مرّ بجانبي وخلفه حشد غاضب متجهين صوبي ، أخذت أجري في شوارع مدينة لا أعرفها والحشد خلفي مسلح بالعصي والسكاكين .. ضاقت المسافة بيننا وشعرت بيد تلمس كتفي فسقطت من الرعب في هوّة عميقة .

فتحت عيني فألفيت نفسي في الفراش وبجانبي زوجتي تنام بوداعة .. تنفست بعمق وحمدت الله على أن ما رأيته ليس حقيقياً ، وأنه لا وجه شبه بين ما رأيت والحياة في هذه المدينة .

ولعنت زوجتي . في داخلي . على وجبة العشاء الدسمة التي أعدتها لي هذه الليلة .



▪ يقدم مجلس الثقافة العام للقارىء الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام